

خيانات عن المجرية

النصار

الأربعاء 20 آب - 2008 السنة - 76 العدد 23447

ميلان فُشت 1888 - 1967

علاء الدين عند قبر أبيه



تجلس الآن في ظل شجرة تين مصري على ضفة نهر في الأصفاح الجنوبية للجنة، تأكل تيناً. بيرد الظل جبينك بينما يصل شعاع شمس الصباح الرقيق إلى لحيتك الطويلة. وكما تتخفى النساء من أمامنا خلف أستار شفافة، كذلك تخفت النجوم قبل برهة، وانعكست على صفحة النهر الأزرق صورة السماء، مبللة. تجلس على العشب الجميل المبلل، تأكل التين وتتنظر إلى الجرف الطيني الأحمر للشاطئ، وإلى الرمال الصفراء وراءه. تشعر أسماك الجنة هي الأخرى بالصباح، وتطل بين الحين والحين من بين أمواج النهر الصافي، فتنظر أنت إلى لهوها، وإلى الرجل الصيني الشاحب وهو يقضم برتقالة، واقفاً قرب شجرة نخل متفكراً. - السلام عليك يا أبي وعلى صحبك في الجنة!

انقضى رمضان يا أبي منذ زمن طويل، وهبط هنا على الحقول البنية ضباب كثيف. جئت إلى هنا متعثراً بين العشب الندي، - (ديوك حبش حراس المقبرة وقفت على أغصانها منذ مدة) -، وبين شواهد القبور الزرقاء حتى قبرك المنخسف الذي مسحت أمطار السنين المديدة الكتابة البنية عن شاهده. وأعلم، أن الشمس مالت إلى المغيب في هذا البلد. لا تزال تعطي من أشعتها، غير أن الهواء أضحى أرق، وتياراته الداكنة أخذت تقترب من جهة الغرب بهدوء. أنا الآن وحدي، ليس سواي غير الحراس الذين بدأوا بإشعال القناديل الزرقاء في الأضرحة، وأخذ النور الأليف المنبعث من أضرحة الأغنياء هذه يتسرب. - لأنني كما تعلم يا أبت، عندما غلبتني المرارة المرة الفائتة قفزت فوق رماح السور الذهبية المسننة في الظلام أصارع الخطر. جنّ الليل، وما كان هناك ثمة شيء سوى كوكب أزرق بعيد راقب جهدي المقدم وسط الصمت. فقد نهرتني امي بشدة من جديد، عندها قررت وأنا في حزن شديد أن أطلب النبل والنقاء أخيراً: أن أزورك في الليل وأن أدفن إلى جانبك حتى لا أرافق بعد الآن سوى عظامك ولحيتك المسكينة. بدأت أقترّب منك عبر المقبرة الرمادية، ووصلت تربتك، وما أن بدأت بإزالة الرمل العلوي الرطب حتى جفل ديك شرير كان على غصن شجرة الحور المجاورة وابتعد صائحاً فتنبه حراس المقبرة الأجلاف. جاؤوا متسلحين بالرماح وأخذوني إلى القاضي كأنني أحد سراق القبور ونابشيها. غير أن القاضي الطيب رأى في عيني الحزينتين الصدق فأطلقني في سبيلي.

وأعلم يا أبي أنني وحيد، لا أحد يقبلني. أمي متشددة معي لكثرة أخطائي التي ورثتها عنك، تغلظ لي القول: بأنني كسول، أطيل من النوم، أمضي أيامي في الراحة سابحاً في الخيال. هكذا كانت الحال المرة الفائتة أيضاً، فبينما كنت متمدداً عند الصخور فوق المدينة أضعت خاتمك، انزلق من أصبعي (في صباح ذلك اليوم لم أذكر اسم الله). عندها عنقتني امي بشدة، لكنك استكثرت عذاباتي. جانبني النوم العميق على الدوام: لكنك في تلك الليلة زرتني في المنام وأرشدتني إلى مكان الخاتم، فطافت الروح، روجي بين الصخور باحثة عنه - ويا له من فرح غامر، حتى الحلم ذاته! فيها هو الخاتم، عثرت عليه الروح في أحد الشقوق. وفي الصباح كان هناك بالفعل في المكان نفسه.

لكن، عبثاً، كان فرح لحظة لمن عثر على كنزه المفقود: بقيت حزينا بعد ذلك. شحوص الحلم نصف موتى ونصف مجانين: وفي الليل بكيت في نومي، بكت الروح وتجمدت دمعته في تلك العتمة. هذه المرة عرفت شيئاً بكل تأكيد: أن أمي تأتي بكل هدوء وتربّيتني وتمسح وجهي وتهدي من روعي. وفي الصباح حتى امي كانت شاحبة وحزينة. لماذا أنت شاحبة؟ - سألتها. - أنا حزينة من أجلك يا

ولدي، - أجابت بعينين دامعتين. - يا أبت! ترى هل يستكثر الرب هو أيضاً عذابي، مثلكم، ويرسل من يوقظني ليزف لي خبراً سعيداً في صباح من الأصباح؟
لم أرك منذ زمن بعيد، وما عدت أذكر بريق عينيك. لو تراني الآن لأعجبك، لتجدي أكثر هدوءاً، لست صاخباً مثلما كنت يوم جلست في حضنك. - يا أبي، كنت قد عشت، لا مرأى في الأمر، ومع ذلك، من الذي يعلم ومن الذي يرى، فأين الطفل الذي هدهدته؟ - في بلدتنا، قال جوهرى عجوز فقير لأبنائه قبل أن يموت (كانت روحه ثملة لسكرة الموت): "لم يصدق أحد كلماتي عندما عشت، بأنني كنت غنياً، بأن كان لي في أفريقيا متجر مزدهر. - من الذي يعلم ومن الذي يرى، ربما حتى أنتم ما عدتم تصدقون ما أقول لكم الآن. لكنني سأسلم الروح سريعاً، لذلك أطلب منكم هذا الطلب: عندما أموت حافظوا على ذكراي وصدقوا مع ذلك الحقيقة التي أقول" - هكذا أحفظ أنا أيضاً ذكراك على هذه الأرض، وأنتك أحببتي لسنواتٍ ثمان، عندما كنت صغيراً.

والآن هناك ساحر يستدعيني. يعدني بمسح عيني بمرهم عجيب فتصبح أحلامي جميلة بعد ذلك. يقول: عينك الحزینتان مناسبتان تماماً لهذا الغرض. لذا يمكنني الإستلقاء والتكاسل كلما شئت. من يدري، هل يقول الصدق؟ - ذات مرة وضع قليلاً من المرهم على عيني اليسرى على سبيل التجربة، فرأيت برجاً جميلاً تحت ضوء القمر. ثم طائراً صغيراً، كان المسكين مبتلاً من المطر، يرتجف وأنا حزنت لأجله. ثم رأيت زهرة رقيقة كأنها الحسرة، وكأنا أنفاس الفجر لا تزال عالقة بها. وأخيراً رأيت غرفة زرقاء جميلة وفيها امرأة جميلة كانت تمسح أثاثاً من الأبنوس. ذلك كله كان في أقل من لحظة. وهو يعدني بجنانن رائعة ساحرة كذلك. - لا أزال متردداً، هل اصدق عقاير الساحر العجيبة وأتقبل تعاليمه؟
انبعثت الريح كالصفيير. هطل المساء. يجول الحراس القساء في الضباب حاملين مشاعلهم، فيشيرون إليّ، ثم يغلقون الأبواب المذهبة الباب تلو الباب. أستودعك الله أبي!

ترجمة ثائر صالح